«ريح الجنوب» المرأة الريفية وقوة الواقع

بقلم: مصطفى فاسي
جامعة الجزائر

من المعروف أن ريح الجنوب هي أول رواية جزائرية جادة ومتكاملة كتبت باللغة العربية، إذ أن المحاولات التي سبقتها (غادة أم القرى لأحمد رضا حوحو، والطالب المنكوب لعبد المجيد الشافعي، والحريق لنور الدين بوجدرة) على الرغم من أهميتها بصفتها تمثل البداية الأولى لفن الرواية في الجزائر فإنها لا تعدو أن تكون مجرد محاولات أولى على درب هذا الفن.

يرى الدكتور محمد مصايف أن المحور الأساسي الذي تدور حوله أحداث هذه الرواية، ليس هو موضوع الثورة الزراعية كما أشار إلى ذلك الدكتور عبد الله ركيبي في كتابه تطور النثر الجزائري الحديث، ولكنه تلك «النفسية المحافظة

التي حملها ابن القاضي من أول صفحة في الرواية إلى آخر صفحة منها، وهي نفسية الطبقة الاقطاعية التي عاشت الثورة الجزائرية دون أن تندمج فيها اندماجا كليا. وكل صراع حدث في الرواية مهما كان نوعه وأثره في سير الأحداث إنما كان بين هذه النفسية وبين المجتمع الريفي المتمثل في المرأة، والسلطة، والثقافة التي كان يمثلها الطاهر المعلم ومالك إلى حد»(1).

غير أننا وإن كنا نتفق مع الدكتور مصايف على أن موضوع هذه الرواية ليس الثورة الزراعية، ففي الرواية كلها وفي مرات قليلة لا نعثر إلا على عبارة «الاصلاح الزراعي»، وحتى هذا الاصلاح الزراعي لا نلتقي معه مباشرة من خلال أحداث الرواية ولكنه يذكر فقط على أنه أمر مرتقب، وخاصة على أنه أمر مخيف بالنسبة إلى ابن القاضي.

وإن كنا نتفق معه في هذه النقطة، فإننا نختلف في بعض الجزئيات التي جاءت في هذا النص. ومن ذلك مثلا مفهوم الاقطاعية التي ينتمي إليها ابن القاضي.

إننا كثيرا ما نعثر فيما كتبه الدكتور مصايف وغيره على مفهوم الاقطاعية عندما يتعلق الأمر بالحديث عن ابن القاضي.

ولنعد إلى البداية فنسأل السؤال المشروع والضروري: هل كان ابن القاضي اقطاعيا؟ ثم هل قصد ابن هدوقة في روايته إلى تقديم رجل اقطاعي، أم مجرد فلاح له بعض الأملاك.

هل جوانب المحافظة هذه التي يتصف بها ابن القاضي وخاصة فيما يتعلق بالمرأة. هي خاصة في الريف بالطبقة الاقطاعية والغنية أم أنها تشمل جميع الريفيين في المجتمع الجزائري. إن الأجوبة على هذه الأسئلة موجودة داخل الرواية نفسها فنحن لا نعثر بالنسبة إلى «اقطاعية» ابن القاضي في الرواية من

بدايتها حتى نهايتها على ذكر كلمة «اقطاعية» وطبعا ليس ضروريا كما هو معروف، أن نستعمل اللفظة نفسها لكي نصف شخصية ما بأنها «اقطاعية» ولكن من الضروري بدون شك أن يقدم الكاتب داخل النص من الصفات والطبائع ما يكفي لكي يجعل هذه الشخصية كذلك.

فهل يوجد في «ريح الجنوب» ما يكفي من الصفات لكي نعتبر ابن القاضي شخصية اقطاعية؟..

ان شخصية ابن القاضي في هذه الرواية واضحة كل الوضوح ولقد قصد الكاتب قصدا لأن يجعل هذه الشخصية في المقابل تماما لشخصية مالك، وأن يربط في الوقت ذاته تاريخ هذه الشخصية بتلك.. فإذا كان مالك هو ذلك المجاهد الوطني المخلص لبلاده سابقا، والمتفاني في حبها والاخلاص لها والتفكير في مصيرها باستمرار حاليا.

فإن ابن القاضي على العكس من ذلك تماما، فهو سابقا «حركي» لأنه أعلم السلطات الفرنسية بموقع المجاهدين انتقاما منهم بعد موت ابنته زليخة في القطار الذي فجره مالك خطأ عوضا عن القطار العسكري، وهو حاليا - أي بعد الاستقلال - مصلحي انتهازي لا يفكر سوى في «أملاكه» والعمل بكل الوسائل للحفاظ عليها..

ولكن وعلى الرغم من هذا فإنه لا يوجد في الرواية ما يقنع بأن ابن القاضي رجل اقطاعي.

يحاول ابن هدوقة من خلال بعض المواقف والأحداث أن يجعل التاريخ يعيد نفسه، ومن بين هذه المواقف التي تؤكد مصلحية وانتهازية ابن القاضي - مثلا -: طريقة تعرف مالك على كل من زليخة التي قدمتها له أمها خيرة: «هذه زليخة ابنتي التي تقرأ في الجزائر، أنت لا تعرفها يا مالك»(2).

ثم تقديمها لابنتها الأخرى بعد الاستقلال: «انها نفيسة ابنتي التي تقرأ في الجزائر»(3). فإذا كان معروفا من خلال الرواية بأن ابن القاضي الرجل المصلحي الانتهازي صاحب الأملاك، وسعيا منه للحفاظ على هذه الأملاك بكل الطرق والوسائل، يتقرب باستمرار من مالك رئيس البلدية أي الممثل الأول للسلطة في القرية، وإن من بين أفضل وسائل تقربه منه ابنته نفيسة، التي كانت تدرس في الجزائر العاصمة، والتي جاءت لتقضي عطلتها في القرية أثناء العطلة الصيفية، والتي فكر مع نفسه وخطط لتزويجها له، منذ بداية الرواية، على الرغم من أن الرواية تنتهي دون أن نعلم بالموقف الحقيقي لمالك من هذا الزواج الذي شاع خبره بين ناس القرية..

إذا كان هذا معروفا، أي تقرب ابن القاضي من مالك لأجل تحقيق هذا الزواج المصلحي عن طريق نفيسة، فإن ذلك نفسه هو ما حدث زمن الثورة عندما عمل ابن القاضي حفاظا على نفسه، وأمواله على التقرب من مالك الشاب الذكي المجاهد النشيط عن طريق تزويجه من ابنته زليخة، لقد صار واضحا حتى الآن بأن المصلحية والانتهازية هما بدون شك من الصفات الملازمة لشخصية ابن القاضي، ولكن هل هاتان الصفتان كافيتان لجعله اقطاعيا؟ لا نظن ذلك، ومهما يكن وللجواب على السؤال الذي ما يزال مطروحا والمتعلق بمدى «اقطاعية» ابن القاضي أو عدم اقطاعيته، لا بد من تحديد مكونات شخصية هذا الرجل وصفاته الأخرى.

يمثل ابن القاضي - في الرواية إضافة إلى ما ذكرنا - الرجل الريفي التقليدي المتسلط في أسرته، أي يمثل السلطة الأبوية والحكم الفردي الذي لا يعارض ولا يناقش، وهذا ما نجده عادة في القصة والرواية العربيتين اللتين تتناولان أمور الحب والزواج، حيث يمثل الأب دائما سلطة القمع الاجتماعي التي لا تعارض،

سلطة الأب في مواجهة جميع أفراد الأسرة من جهة، ثم سلطة الرجل في مواجهة المرأة وضعفها من جهة أخرى، فها هي - مثلا - أم نفيسة تردد مع نفسها عند عجزها عن مقاومة رأي الزوج، وتصميمه على تزويج ابنته مرغمة: «ربي قدر هذا، ثم حظي العاثر»(4) وها هي نفيسة تعبر من جهتها عن الموقف: «في الجزائر كان المستقبل وحده الذي يهمني، أما هنا فأبي هو المستقبل، أبي هو مالك مستقبلي، أبي الذي اعطاني الحياة، أبي مالك حياتي أولا وأخيرا... أبي يملك حياتي وحياة أمي.. حياة المرأة ملك الرجل»(5)..

فمع الفرق الواضح بين موقف كل من الأم والبنت في مستوى الوعي ودرجته، توجدان معا في خانة واحدة، هي خانة « الانسان المضطهد المغلوب على أمره».

فكما يضيف الكاتب وبصيغة مباشرة، تعليقا على موقف الأم، ف. «سواء كان المكتوب أو الحظ العاثر أو شيء آخر منع هذه الأم من الادلاء برأيها في هذا الموضوع الهام بالنسبة إليها فإن الزوج كان مصرا على أن تكون له الكلمة وحده»(6).

وبعد، فإذا كان صحيحا تماما أن ابن القاضي لا يسمح بأي تنازل لأي كان لأن يدلي برأيه فيما يتعلق بزواج ابنته فهل هذا، أي الحكم الانفرادي المتسلط من طرف الأب، يقتصر على الاقطاعيين وحدهم؟ لا أظن ذلك فالأمر هنا لا يتعلق بالاقطاعية أو اللااقطاعية ولكنه يتعلق برجل ريفي فلاح محافظ مثل غيره من الفلاحين الريفيين أغنياء وفقراء.

فهل هنالك صفات أخرى تجعل من ابن القاضي اقطاعيا؟

ابن القاضي مصلحي انتهازي كما برهن الكاتب على ذلك أكثر من مرة، ولكننا لا نجد غير ذلك.

بينما هو يتصف من جهة أخرى بصفات أخرى حسنة وايجابية وإن كان في الرواية ما يوحي بأن اتصافه بهذه الصفات إنما كان مقصودا لأجل الوصول إلى أغراضه، ومن بين ذلك مثلا: كرمه، فهو كريم يقيم - مثلا - مأدبة للجميع يوم إعادة دفن الشهداء كما أنه يقيم «فدوة» العجوز رحمة عند وفاتها، الخ...

وهو بصفة عامة، واحد من سكان القرية، عادي جدا في تعامله مع الآخرين، لطيف جدا، لا يتكبر، ولا يغضب، عادي أيضا في حياته الخاصة، فهو أولا يعيش مع الأخرين في القرية لا يستعمل في ركوبة السيارة - مثلا - ولكن البغل والحصان، يبكر عند الفجر ليصلي، يلتقي مع بقية سكان القرية في المقهى، فأين هي تلك الأخلاق الاقطاعية في التعامل مع الآخرين خاصة مع العمال والمستخدمين؟

وللجواب نقول: إما أن هنالك نقصا من طرف الكاتب في تصوير شخصية هذ الرجل «الاقطاعي» بحيث قدم لنا صورة له غير مكتملة، إذا كان يريده أن يكون اقطاعيا، أو أنه قصد قصدا إلى تقديم فلاح من فلاحي القرية له بعض الأملاك، ولكنه أبعد ما يكون عن الاقطاعية، وإلا فأين عمال هذا الرجل؟ أين ظلمه لهم وسيطرته عليهم، أين افاق شخصيته البعيدة، علاقاته الأخلاقية مع الاقطاعيين الاخرين، نظرته الطبقية المنسجمة معهم الخ...

كل ما هنالك أن الكاتب يذكر أن لهذا الرجل أملاكا، يقول أنها تمثل نصف أملاك القرية، ولكن ماذا تملك القرية وماذا يملك ابن القاضي؟ لا ندري.

نحن إذن لا نلتقي باقطاعي، ولكن بفلاح يملك بعض الأملاك، ويسعى للحفاظ عليها، وأما تعامله مع من يعملون عنده فلا نجد عنه إلا مثالا واحدا، هو تعامله مع رابح راعي غنمه، وحتى تعامله مع هذا - بغض النظر عن النهاية المأساوية

للرواية التي تمثلت في مواجهة كل منهما للآخر رجلا لرجل - فقد كان في غاية اللطف والهدوء، فقد ترك الراعي غنم ابن القاضي عندما أراد هو التخلي عن الرعي، فلم يزد ابن القاضي عن لومه لوما رقيقا، وكان ذلك خلال جلسة حضرها مالك الذي يحترمه ابن القاضي - ولو ظاهريا - غاية الاحترام، وفي هذه الجلسة حاول ابن القاضي أن يثني الراعي عن عزمه، وأن يجعله - بمساعدة مالك - يعود إلى الرعي. ولكن رابح رفض رفضا قاطعا، فلم يزد ابن القاضي أن أذعن للأمر الواقع، ثم هنالك بالإضافة إلى ما سبق جزئية صغيرة تجعلنا نتأكد أن ابن القاضي هذا لا علاقة له بالاقطاعية، فعندما سئل رابح من قبل ابن القاضي أين سيعمل بعد تركه الرعي مع العلم أن العمل قليل، وأجاب بأنه سيعمل أي عمل المهم أن لا يعود إلى الرعي، هنا كان من المفروض لو أن ابن القاضي اقطاعي فعلا أن يعرض عليه - وهو الذي مدحه بعد أن ظل الراعي يشتغل عنده في الرعي منذ صغره - يعرض عليه أن يشتغل عنده في أملاكه. لا أن يتساءل معه: أين سيجد عملا؟ وبعد فإن ابن هدوقة جاء بشخصية ابن القاضي - بدون شك - لكي يدينها إلا أنها، وكما هو واضح في الرواية، ليست شخصية اقطاعي، إنما هي شخصية فلاح كبير - كما يعلمنا الكاتب بذلك، لا كما نعرف بأنفسنا من خلال النص الروائي، ومن خلال صفات هذه الشخصية.

وبهذا فإن ابن هدوقة قد أخفق في تقديم شخصية ابن القاضي إذا كان يريد تقديم شخصية اقطاعية.

وحتى عند الافتراض بأنه إنما كان يهدف - وهذا هو المرجح لدينا - إلى تقديم رجل ينتمي إلى تلك الفئة التي تمثل نسبة لا بأس بها من الفلاحين الجزائريين الذين كانوا يملكون بعد الاستقلال أملاكا كبيرة، فإنه يكون في هذه الحال أيضا قد أخفق إلى حد ما في تقريب صورة هذا الفلاح الحقيقية من القارئ عندما

اكتفى بالحديث عنه، في معظم الأحيان - من بعيد.

نتفق* تماما مع الدكتور محمد مصايف بأن مركز الصراع في هذه الرواية هو في واقع الأمر ابن القاضي بسبب الجوانب المتنوعة لشخصيته نظرا لأهمية مركزه في أسرته أولا، وفي القرية ثانيا.

فهو في أسرته يقف في الصف المضاد لابنته نفيسة ولزوجته.

وهو في القرية يقف على المستوى الاداري والسياسي في مواجهة مالك من جهة، كما نجد له من جهة أخرى أعداء طبيعيين من بين سكانها منهم - مثلا - ذلك الذي أعلمه بوجود ابنته - بعد هروبها - في بيت رابح الراعي، فهو لم يفعل ذلك خدمة له وحبا، ولكن للتشفي فيه.

وكان من المفروض أن يقف في صف المواجهة لابن القاضي أيضا عماله ومستخدموه، بصفته «اقطاعيا»، إلا أن هؤلاء، لا نجد منهم سوى رابح الراعي، وقد سبق أن عللنا سبب ذلك.

وسنركز تحليلنا على أهم شخصيتين مواجهتين لابن القاضي، هما شخصية نفيسة، وشخصية مالك.

ما الذي كان الكاتب يهدف إليه من وراء إبداعه لشخصية نفيسة؟

لقد سعى الكاتب من خلال شخصية نفيسة إلى تقديم قضية هامة وكبيرة من قضايا العصر في الجزائر هي قضية المرأة وحريتها وتطورها.

فإذا كانت هذه القضية في العالم العربي قد أسالت كثيرا من الحبر فكتبت عنها المقالات المتعددة عبر الجرائد والمجلات العربية، وكذلك الكتب الكثيرة ابتداء مما كتبه قاسم أمين إلى الطاهر الحداد إلى غيرهما من الكتاب الكبار والصغار

معا الذين تحمس بعضهم لحرية المرأة وتقدمها فدافع عنها دفاعا مريرا بينما وقف بعضهم موقفا مختلفا بحيث رأى في هذه الحرية وهذا التطور خروجا عن الدين والأخلاق الخ...

إذا كانت هذه قضية المرأة في العالم العربي، فإن قضيتها في الجزائر أيضا لم تكن غائبة عن الصحافة الجزائرية منذ بدايات هذا القرن. فلقد كان موضوع المرأة دائما موضوعا حساسا ومثيرا للجدول بين المفكرين والأدباء، والعلماء، والمثقفين بصفة عامة.

ومما لا شك فيه أن وضع المرأة بعد استقلال الجزائر يختلف عنه تماما قبله، فلقد فتح المجال واسعا أمام المرأة الجزائرية بعد الاستقلال لكي تتعلم أولا، ثم لكي تسهم في جميع مجالات النشاط الوطني ثانيا.

هذا من ناحية القرار السياسي، ولكن القرار السياسي غير الواقع الاجتماعي، ومن هنا تأتي أهمية طرح موضوع المرأة - وبالذات المرأة التي تتعلم وتتغير وتريد أن تغير - في رواية «ريح الجنوب».

ومما لا شك فيه - وهذا قبل الدخول في تحليل شخصية نفيسة وهي الشخصية النسوية المركزية في «ريح الجنوب» أن الكاتب قد وفق كل التوفيق من حيث الاطار الذي وضع فيه هذه الشخصية مما سيجعلها تؤدي الدور المنوط بها أحسن أداء، فالزمان سنوات قليلة بعد استقلال الجزائر، والمكان مكانان، مكان مؤقت، هو مجتمع العاصمة الذي تعلمت فيه نفيسة وفتح أمامها الآفاق واسعة، ومكان أصلي، هو مجتمع القرية الذي يناقض الآخر ويعمل على هدم ما بناه.

والبيئة بعد هذا هي بيئة هذا المكان الثاني، الذي يضغط على نفيسة بكل الوسائل، والذي لا تكاد تجد فيه - متنفسا، اللهم إذا استثنينا علاقتها بكل من

شخصيتي العجوز رحمة المرأة «الفنانة» الطيبة صانعة الفخار، وأم رابح المرأة الجميلة البكماء، هاتين المرأتين اللتين ارتاحت لهما نفيسة ارتياحا كبيرا بسبب طبيعتهما وتفهمهما. لقد حضر الكاتب إذن شخصية نفيسة تحضيرا مدروسا ومتقنا لكي تمثل دورها أحسن تمثيل.

فهل أتقنت نفيسة دورها بالفعل؟ أو بالأحرى هل وفقت في أداء هذا الدور؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عليه في الفقرات التالية.

في تصورنا أنه كان أمام الكاتب عدة طرق أو امكانيات للخط الذي يمكن أن تسير فيه نفيسة.

كان في إمكانه مثلا أن يجعل نفيسة تعود من العاصمة في العطلة الصيفية إلى بلدتها الأصل وكلها بهجة ومرح وفرح بالحياة، فهي تعود من العاصمة مدينة الصخب والفوضى والاكتضاض إلى قرية هادئة نقية الهواء، تعود من الغربة ومن وسط أناس لا تعرف منهم إلا القليل، إلى أهلها وسكان قريتها، تعود في حنين إلى مسقط رأسها.

كان من الممكن أن يكون الخط الذي تسير فيه شخصية نفيسة بهذا الشكل، إلى أن تعلم - وهي في خضم الأمل والحلم بمواصلة دراستها بعد انقضاء عطلة الصيف - بنية أبيها في تزويجها من مالك، هذا الزواج الذي لم تكن تفكر فيه بعد.

وكان من الممكن أن يطرح الكاتب من خلال هذا الخط نفس الأفكار، ونفس الأمور المتعلقة بالمرأة وحريتها. ولكن ربما بطريقة أبعد ما تكون عن المباشرة وعن الاعتماد على النظرية كما فعل، أي بطريقة تجعل نفيسة أكثر انسجاما مع واقعها وأكثر طبيعية مع دورها. ومن ثم أكثر اقناعا.

صحيح أن نفيسة تنتمي - في الأصل - إلى الريف، وصحيح أنها تعلمت في المدينة، وصحيح أن الريف الذي تنتمي إليه ظل محافظا وهو مما سيتناقض مع أفكارها، ومن هنا يأتي الصراع في الرواية وتأتي الثورة على التخلف، ولكن الموقف كان سيكون أكثر تعبيرا وأعمق بكثير.. لو أن هذا الصراع وهذه الثورة كانا نابعين من ذات الشخصية ومن تجربتها الخاصة ومن الموقف الذي وضعت فيه، لا من الأفكار النظرية العامة.

لهذا كله فإننا نشعر بنوع من الرتابة وعدم التطور في شخصية نفيسة، مع أنها الشخصية الأساسية التي كان من المفترض أن يحدث فيها كثير من التطور، فالتطور الذي حدث على هذه الشخصية لم يكن في الواقع سوى في حركتها الخارجية. أما في إحساسها وشعورها وفكرها فإن نفيسة في بداية الرواية هي نفسها في نهايتها.

ويرجع السبب في ذلك إلى أن الكاتب قصد عمدا تحميلها كثيرا من أفكاره «الثورية» والاصلاحية فيما يتعلق بتطور المجتمع وتحرير المرأة، وكانت هذه الأفكار أفكارا نظرية في معظمها.

تقول نفيسة في إحدى الصفحات الأولى من الرواية: «لا يعرفون هنا إلا الصلاة والموت أما الحياة فهي وساوس شيطان»(7).

كما أننا نلتقي منذ بداية الرواية مع نفيسة وقد ضاقت نفسها إلى درجة الاحساس بالاختناق من جو القرية وكأنما هي في سجن، وذلك بسبب تخلف القرية التي تختلف اختلافا جذريا عن العاصمة. والكاتب يذهب مباشرة إلى طرح المواضيع والأمور والأفكار التي يريدها فعندما تسأل العجوز رحمة نفيسة عما يحزنها وهي موجودة بين أبويها تجيب هذه: «لا شيء يا خالة ... انني أغار من

عبد القادر»(8) أي بسبب حريته وهو الطفل الصغير، فهي في القرية لا تملك مثل هذه الحرية بسبب كونها إمرأة.

ثم تضيف بعد ذلك بقليل: «إن الدنيا تبدلت يا خالة تبدلت، إن جهل الرجال هو الذي أطلق ألسنتهم بالسوء فينا، وأن جهل المرأة هو الذي جعلها تحيا بين عبودية الأباء والأزواج»(9)، هي إذن مؤهلة لحمل أفكار الكاتب الاصلاحية من بداية الرواية، وكأنما أراد الكاتب أن يمتحنها عندما جعلها موضوعا لتطبيق هذه الأفكار بالذات، فهذا «أبوها يقرر منعها من العودة إلى الجزائر، من مواصلة الدراسة، يقرر تزويجها، يختار هو من تتزوج به»(10).

ويواصل الكاتب شرح الأمور التي تقف في وجه نفيسة، ومن بينها الدين الذي يتدخل حتى في الملبس، والحظ الذي يقف ضدها، والغيبيات، والظروف الخارجية التي تتحكم في مصيرها والتقاليد البدائية المقيدة لسلوكها الخ....

والسؤال المطروح عليها بعد هذا كله، وبعد قرار أبيها تزويجها من مالك هو: «ماذا عساها أن تفعل وحدها لمواجهة كل ذلك؟ هل تثور؟ ولكن أية ثورة، وفي أي إتجاه؟ إنها لا تعرف أحدا في القرية وهب أنها عرفت، ماذا يجدي ذلك؟ فلا فرع هناك للمنظمة النسائية ولا لشبيبة الحزب ولا لغيرهما»(11).

وعلى الرغم من أن نفيسة لا تواجه أباها مباشرة، فذلك من قبيل المستحيلات، فإنها مع نفسها تقرر الثورة على الوضع الذي وجدت نفسها فيه.

وفي خضم الصراع بين الأب والبنت، تكون الأم - كالعادة واسطة الاتصال - فتقع بين فكي الكماشة، وتنال من غضب الطرفين، فبينما تقول لها البنت مثلا: «الذل الذي عشت فيه أنت لن أعيشه، كوني أما لغيري إن شئت»(12) يكون الأب قد قرر: «أنا قررت أن تتزوج وقراري قضاء»(13). أراد الكاتب إذن لشخصية

نفيسة أن تحمل أفكاره وآراءه في قضية المرأة، ولقد أعدها وزودها بثقافة جيدة تؤهلها للقيام بهذا الدور، فهي عندما تجد نفسها في ذلك المأزق الصعب، تستنجد بقول أحد المفكرين: «مع أقسى محنة في الحياة تبقى للمرء حرية الاختيار»(14).

وهي تفكر باستمرار في وضعية قريتها المتخلفة، وخاصة في وضعية نسائها ووضعية المرأة العربية بصفة عامة، «التي في الارث لها نصف حظ الرجل، وفي الحياة لا حظ لها معه «مطلقا» »(15).

وعلى العموم فإن الكاتب يتعرض لموضوع الزواج بالطريقة نفسها التي نعثر عليها، في الكثير من الأعمال القصصية والروائية التي كتبت في البلاد العربية خلال النصف الأول من هذا القرن. هذه القصص والروايات التي جعلت دائما المرأة هي الضحية في مجتمع رجالي متعصب يقف في وجهها، وضد طموحها.

وكالعادة فإن ظلم المجتمع يتمثل في معظم الأحيان في سلطة الأب القوية والمطلقة، وقد يمثل جانبا من هذا الظلم أحيانا الأخ، أو العم، أو الخال، الخ...

ولم يفت ابن هدوقة ذلك، فها هو يشير في إحدى فقرات الرواية حتى إلى سيطرة الابن على أمه، فعندما تسأل نفيسة رابح ما إذا كانت أمه لا تريدها أن تبقى في بيتها، يجيب رابح بقوله:

«لا، لا تستطيع أن ترفض فأنا الذي أتصرف هنا. ابتسمت نفيسة لضحك رابح واعتداده بنفسه، ولو أنه لم يفتها أن تلاحظ سيطرة الرجل على المرأة في كل موقف مهما كانت الرابطة التي تربط بينهما»(16).

قد يؤخذ على ابن هدوقة أنه جعل ثورة نفيسة ثورة فردية، ولكننا نعتقد أنه قصد بذلك قبل كل شيء، الاخلاص للواقع. فلو كانت نفيسة تريد أن تثور في

مدينة كبيرة، أو حتى في مدينة متوسطة، حيث يتوفر العنصر النسوي في شكل الطالبات أو الموظفات أو العاملات الخ... وحيث تتوفر التنظيمات النسوية المختلفة، أو التنظيمات التي تسمح بمشاركة المرأة، فإنها كانت بدون شك ستجد بجانبها نساء أخريات يشاطرنها أفكارها ويشعرن بشعورها، أما وقد وجدت في هذه القرية الصغيرة النائية المنعزلة، فإن عليها أن تتحمل قدرها ومسؤوليتها وحدها.

وبقدر ما نشعر بانعزال قرية نفيسة هذه نشعر كذلك أن نفيسة بدورها عندما نتأمل شخصيتها بشكل جيد - شخصية منعزلة تماما عن بقية السكان، بل سينتابنا احساس واضح وقوي بأنها لا تنتمي أصلا إلى هذه القرية ومجتمعها وإنما هي إمرأة دخيلة لا تختلف عن أية امرأة أخرى سائحة أو طارئة على هذا المجتمع.

فلقد لاحظنا منذ البداية تأفف نفيسة من القرية وضيقها من وجودها فيها وعدم احساسها بأية عاطفة نحوها. ولقد زاد الكاتب من حيرتنا وتساؤلاتنا عندما ترك مرحلة من مراحل عمر نفيسة غامضة، وهي مرحلة طفولتها. فهو يذكر أنها كانت تدرس في العاصمة وكانت تسكن عند خالتها، ثم عادت في العطلة الصيفية، وهذا يسمح لنا ولخيالنا بملء الفراغات الزمنية فنتخيل مباشرة بأنها درست خلال أعوام طفولتها في القرية، لأن المدرسة الابتدائية كانت موجودة بدون شك، ثم انتقلت إلى العاصمة، وهي تعود في كل عطلة صيف إلى قريتها.

إذا كان هذا هو الاحتمال الغالب والأكثر قبولا بالنسبة إلى مسار حياة نفيسة، فإننا سنجد كثيرا من الخلل عندما نعود إلى تتبع حركتها في الرواية.

ولعل الكاتب يكون قد دق جرس الانذار عندما جعل العجوز رحمة تلاحظ «لأول مرة أنها أمام امرأة لا تعرف مثيلا لها في هذه القرية»(17). لقد كانت ملاحظة العجوز رحمة هنا ايجابية كما هو واضح، إذ من الطبيعي جدا أن تخرج طفلة من

قرية ما، لكي تسافر وتتعلم وتعود بعد ذلك إلى قريتها وهي تحمل في ذهنها كثيرا من المعارف والأفكار الجديدة.

ولكن الأمر غير الطبيعي هو ذلك المتمثل في بعض الجزئيات التي ستؤدي بنا إما إلى التأكد بأن نفيسة لا تنتمي أصلا إلى هذه القرية، أو أن الكاتب لا يعرف القرية جيدا. وإلا فما معنى أن تلجأ نفيسة إلى اختلاق درس في الجغرافيا مع أخيها الصغير فقط لكي تصل إلى معرفة موعد القطار المتجه إلى الجزائر، مع أنها أكبر منه سنا - وأنها - كما هو مفترض - من القرية نفسها، مع العلم أن الناس في القرى يعرفون بالتفصيل كل شيء حتى الأحجار والأشجار كبيرها وصغيرها، فما بالك بموعد القطار الوحيد الذي يمر بالقرية، مرة واحدة في اليوم، ثم أن الكاتب يتحدث عنها وقد ضاع منها أثناء هروبها - الطريق المؤدي إلى محطة القطار، فهل هي في قرية، أم في إحدى المدن الكبرى؟؟..

ثم أنه يتحدث عن نفيسة يوم وفاة العجوز رحمة في علاقتها بنساء القرية وعلاقتهن بها فيشير إلى القطيعة الكاملة بينها وبينهن، فلا هي تعرف واحدة منهن عدا أمها، ولا هن يعرفنها، فكأن الكاتب يتحدث عن لقاء مجموعة من النسوة في أحد حمامات العاصمة أو ما شابه ذلك... ثم ما هذا التصرف «المتحضر» من طرف نفيسة التي تريد دفع بعض المال ثمن إقامتها في بيت أم الراعي، الذي أنقذها من الموت إثر لذغة ثعبان، وأعادها إلى البيت، وبعد ذلك دخول إحدى عجائز القرية إلى بيت الراعي دون أن تعرف نفيسة.

وكما أن الملاحظات التي سبق ذكرها تجعل شخصية نفيسة غير مقنعة بالشكل الكافي، أو هي تجعلها - على الأقل - شخصية غريبة عن القرية مما سيقلل من أهميتها ودورها لحمل رسالة التطور وتحرير المرأة، فإن عملية هروبها أيضا تتسم ببعض التكلف.

فبالاضافة إلى ما سبق ذكره من تضييعها للطريق المؤدي إلى محطة القطار، وبالاضافة إلى قصد اختلاق المصادفة في جعل الراعي بالذات هو الذي يعثر عليها في العراء تصارع الموت فينقذها مما يسمح للكاتب بتطبيق المفهوم الاخلاقي المعروف: «العفو عند المقدرة».

بالاضافة إلى هذا وغيره فإن الكاتب يختلق مجموعة من الصعوبات والأهوال التي تقف في وجه نفيسة، فهذا ثعبان يفر من أمامها، وهذا ثعبان آخر ينهش رجلها، كل ذلك لكي يأتي الانقاذ من قبل رابح الراعي. إلا أن هنالك أخطاء، أحيانا تتمثل في عدم وجود الدقة الكافية.

فبعد أن ذكر الكاتب - مثلا - بأن السم انتشر في جسم نفيسة، وبعد أن أعلمنا «أنها لذغت، وصار ساقها أسود، واسود جسمها ووجهها»(18) بعد أن انتشر السم في جسمها، يعلمنا بوصول الراعي الذي يجرح ساقها مكان اللذغ ليمتص دمها المسموم، لقد صار كل جسمها مسموما، فهل سيمتص كل دمها؟؟..

حاول الكاتب تحديد عملية هروب نفيسة بكل دقة. فجعل هذا الهروب يتم يوم الجمعة، وبالضبط وقت السوق الاسبوعية، عندما يكون الرجال في السوق، والنساء في المقبرة، وبهذا فقد خرجت نفيسة من دار أبيها وهي تلبس ألبسة رجالية دون أن يلاحظها أحد، إلى أن وجدها الراعي بعيدا عن القرية ساقطة على الأرض وأعادها إلى بيته، كل هذا أمر مقبول مهما قيل في الطريقة التي تم بها، إلا أن الأمر غير المقبول حقا أن تعود أم نفيسة بعد زيارة المقبرة دون أن تجدها فتظل داخل بيتها تعيش قلقها دون أن تقوم بأية حركة للبحث عنها، ألا يجب أن تسأل عنها عند الجيران؟، عند سكان القرية الآخرين؟ إلخ...

إن الكاتب يشعرنا أكثر من مرة أنه لا يعرف القرية جيدا، ومن الأمثلة على ذلك أنه جعل «مالكا» الذي يحضر لحظات وفاة العجوز رحمة ليلا، ينتظر حتى

يفتح الحاج قويدر مقهى القرية صباحا لكي يعلمه بهذه الوفاة، ولكي ينتشر الخبر من هناك، من المقهى. فهل سكان القرية عندنا يتصرفون بهذا الشكل؟ ان القروي لا يتورع عن دق باب منزل جاره في أي وقت كان من النهار أو الليل، بسبب أمور أبسط كثيرا من الموت، فما بالك بأمر الموت في القرية.

أما الشخصية الثانية في هذه الرواية التي تقف في مواجهة ابن القاضي فهي شخصية مالك رئيس البلدية.

والذي نعتقده أن الكاتب عرف - بشكل موفق تماما - كيف يربط تلك العلاقات بين ابن القاضي ومالك، ويجعلها تقوم في ظاهرها على التفاهم والود والانسجام، بينما هي في حقيقة الأمر تقوم على الحذر والاحتياط بين الطرفين فعداوتهما «طبعا لم تكن ... صريحة بينهما ولا معروفة لدى الناس»(19).

فابن القاضي فلاح كبير قبل الاستقلال، متعاون مع الاستعمار وهو حاليا فلاح كبير، يسعى للحفاظ على أملاكه، ويبدي كثيرا من الكرم والتسامح والتعامل الحسن، ويتقرب من مالك ممثل السلطة بكل الوسائل، «ويفتعل المناسبات للتعظيم من شأنه وذكر كفاحه واخلاصه للثورة والوطن»(20) أما مالك فهو رجل وطني مخلص، مجاهد سابقا، وشاب مستقيم إلى أقصى حدود الاستقامة، وهو الآن رئيس لبلدية صغيرة مغمورة، تمثل شغله الشاغل ويفكر في النهوض بها ليلا ونهارا.

وباختصار فإن العداوة بين مالك وابن القاضي لم تكن «هجوما بل كانت تربصا وانتظارا»(21).

مع الفارق أن عداوة مالك لابن القاضي كانت مذهبية، فهو يرى فيه ذلك الفلاح الكبير الذي يملك من الأرض أكثر من حقه، والذي يجب في إطار الاصلاح

الزراعي المقبل، وفي إطار اتجاه الجزائر نحو الاشتراكية أن يتخلى على بعض أراضيه للفلاحين الفقراء المستحقين، فمالك يمثل هنا سياسة السلطة الرسمية في الاتجاه نحو الاشتراكية، بينما كانت عداوة ابن القاضي لمالك شخصية، فقد وشى به وبأصحابه من المجاهدين يوم قتلت ابنته زليخة في القطار الملغم، وهو الآن يفكر في مستقبل أملاكه، ويعمل على ضمان بقائها. كل من مالك وابن القاضي إذن يعرف الآخر معرفة جيدة مما يجعله يتصرف إزاءه في ذكاء، وحيطة وبحذر شديد، ولقد وفق الكاتب - كما ذكرنا سابقا - في تصوير العلاقة بين هذين الرجلين.

يقدم الكاتب مالك في صورة ذلك الرجل الهادئ المخلص الجاد الانساني المتأمل في واقعه الذي يشعر بثقل المسؤولية إلى أبعد الحدود، الوفي بعد ذلك لغيره.

فمن بداية الرواية تطرح قضية زواجه من نفيسة الفتاة الجميلة المتعلمة، تطرح على لسان ابن القاضي، ويشيع موضوع هذا الزواج على كل الألسنة في القرية، إلا أن «مالك» وعلى الرغم من وقوفه منبهرا مع شعوره، عندما دعاه ابن القاضي إلى بيته ورؤيته لنفيسة بأنها «زليخة التي وقف منذ ساعات أمام قبرها أثناء التدشين تقف الآن أمامه حية»(22) على الرغم من اعجابه بنفيسة التي تشبه أختها التي كانت ذات يوم خطبيته، وعلى الرغم من المستقبل الجميل الذي كان من الممكن أن يضمنه لو عجل في الزواج من نفيسة، فإن «مالك» ولانشغاله باستمرار بهموم البلدية ومشاكلها، ومشاكل الوطن بصفة عامة، إلى درجة شعورنا بأن تفكيره كان أوسع من حجم هذه البلدية المرمية، برغم ذلك فإن مالك ينسى تماما موضوع زواجه، وينسى التفكير في كل ما يتعلق بشؤونه الشخصية.

فهو مرة يشعر بالملل والخجل من دوره كرئيس للبلدية «يدشن المقابر بدل المعامل»(23).

وهو مرة يتأمل تضامن الجميع يوم وفاة العجوز رحمة، فيعلق «هم الشعب هؤلاء الفقراء، آه لو عرفوا فقط قوتهم الحقيقية واستعملوها كما ينبغي لأدركوا أن الأرض مهما كان أديمها فهي صالحة للخصب»(24) وهو في أحيان أخرى يرتقع إلى مستويات أخرى من التفكير والتأمل، إلى درجة ننسي معها أننا، ازاء رئيس للبلدية استغرقته الشؤون الادارية وهموم المواطنين «لست أدري من منا المسكين الحزين، أأنا الحي أم العجوز الميتة؟ كان مالك يمشي وراء الجنازة سابحا في أفكاره المضطربة وفلسفته العابثة»(25)، وهو على العموم ثائر على الوضع، يرى بأن الأوضا ع التي قامت الثورة التحريرية الكبرى من أجل تصحيحها، ما زالت لم تصحح، فعندما كان الشيخ يحدث المجتمعين في مساء اليوم الذي دفنت فيه العجوز رحمة عن الجنة والنار، وقد استعمل في حديثه كثيرا من الخرافة كان مالك يفكر: «إن الثورة المسلحة حررتنا من الاستعمار ولم تحررنا من الأوهام، يجب القيام بثورة أخرى، لكن من يقوم بها المدرسة وحدها لا تكفي»(26).

إلا أن «مالك» بالرغم من ثورته وتفاؤله كثيرا ما يصاب باليأس واللاجدوى، فقد «كان يشعر أن عزلته تزداد أكثر فأكثر وأن حياته بهذه القرية التي أحبها، وخاض حرب التحرير من أجلها، من أجل تغيير وجهها القاتم، هو ورفاق استشهدوا وأخرون غادروها إلى المدينة حيث استأنفوا حياة جديدة، إن هذه الحياة أخذت بمرور الأيام تكشف عن تفاهتها وعقمها»(27).

إن «مالك» في هذه الرواية هو الذي يمثل وعي الكاتب المباشر بالحياة وبالواقع وبما يجري في الجزائر لمرحلة ما بعد الاستقلال هو الضمير الحي، والمخلص، والمتتبع لكل مجريات الأمور، ونحن نشعر من خلال تفكير مالك بأن الكاتب أصيب بكثير من خيبة الأمل، فقد عاهد مالك نفسه وهو في الجبل بالبقاء - بعد الاستقلال - في القرية وخدمتها إلا أن: «الحقيقة التي تمخض عنها الاستقلال لم تكن في الحسبان بالأقل في حسبانه هو»(28).

إن سمعة مالك لدى الجميع سمعة طيبة، فالكل يعزه ويحترمه بصدق، باستثناء ابن القاضي، الذي يحترمه ويقدره ويمدحه نفاقا.

ولا شك أن أصدق أصدقائه، وأقرب واحد إلى نفسه من بين سكان القرية جميعها - بالاضافة إلى العجوز رحمة التي يقدرها ويحترمها والتي خدمته خدمات جليلة أثناء ثورة التحرير - هو المعلم الطاهر.

فمن خلال صفحات الرواية نشعر أن شخصية المعلم الطاهر ما هي إلا تكملة لشخصية مالك.

فالمعلم الطاهر مثل مالك، رجل وطني مخلص، شارك في ثورة التحرير، خفيف الظل، ينتمي إلى البرجوازية الفلاحية الصغيرة، يحمل في ذاته كثيرا من الصفاء الرومانسي: «أليس من الطيش أن أحب فتاة بدون أن أراها ولو مرة، فتاة لا تعرفني ولا أعرفها، أحببتها لمجرد ما سمعت عنها ولمجرد ما أوحت به إلي سيماء أخيها»(29) وهو إلى جانب هذه الحساسية المفرطة ازاء الحب، فإن له حسا قويا فيما يتعلق بالفقر وعذاب الانسان في هذه الأرض: «المعذبون في الأرض أنا واحد منهم، حياتي أبشع من حياة الفلاح المصري»(30).

وهو - مثل مالك - عندما يفكر في القرية وكيفية، خروجها من التخلف يرى أن ذلك لن يتم إلا عن طريق الجدية والعمل، وهو يعارض - مثلا - بكل شدة، الحاج قويدر صاحب المقهى الذي يؤمن بأن الواقع هكذا، أو هو هذا(31).

وهو كثيرا ما يتهجم على البلدية - على الرغم من أن صديقه هو رئيسها إذ يرى أنها مقصرة جدا، وأنها لا تكاد تفعل شيئا، وأن بإمكانها أن تفعل الكثير.

ان من بين أهم الشخصيات الأخرى التي كانت لها في هذه الرواية علاقات قوية مع جميع الأطراف، شخصية العجوز رحمة.

لقد اهتم الكاتب بهذه الشخصية اهتماما كبيرا، وجمع لها من الأوصاف ما يجعلها شخصية محببة إلى جميع سكان القرية بلا استثناء ومما يؤهلها لأن تكون لها مكانة هامة بين الجميع، ومن ثم يكون لها تأثير واضح في مسار أحداث الرواية.

فهي أولا امرأة مناضلة شاركت في الثورة التحريرية بجانب المجاهدين بتقديم خدماتها لهم، ومن بين ذلك أنها - مثلا - ظلت تخدم مالكا في بيتها عندما جرح ثلاثة أشهر.

وبالاضافة إلى إخلاصها لوطنها فإن العجوز رحمة مخلصة كل الاخلاص لزوجها الذي ما زالت تزور قبره كل يوم جمعة منذ عشرين سنة.

ثم أن الأواني التي تصنع وتبذل كل الجهد لأجل اتقان صناعتها موجودة في كل بيت من بيوت القرية، وبالاضافة إلى هذا كله فإن العجوز رحمة ونظرا إلى سنها وتجاربها فإن الحكم والامثال تنساب دائما على لسانها، ولا يفوتنا بعد هذا أن نشير إلى أنها رغم كبر سنها تعيش من عرق جبينها، فهي تصنع الأواني لكي تعيش.

لا بد أن الكاتب كان يريد عندما جمع كل هذه الأوصاف في العجوز رحمة أن يشير إلى أهمية دور المرأة الجزائرية التقليدية، وإلى مكانتها على الرغم من أميتها، فهي التي تمثل الاصالة الحقيقية للشعب الجزائري عبر العصور، وهو عندما يضعها في رواية واحدة بجانب نفيسة إنما يقصد بذلك الاشارة إلى الجيلين معا جيل المرأة الجزائرية التقليدية التي تمثل الماضي وتمثل الاصالة، وجيل امرأة المستقبل التي تمثل التعليم والثقافة والسعي نحو التقدم، إلا أننا نشعر أن الكاتب يحمل العجوز رحمة - أحيانا، أكثر من مستواها الذهني.

فها هي - مثلا - تخاطب الجميع عندما دعا ابن القاضي مالكا إلى بيته، وساد الصمت بعدما سلم على أفراد الأسرة: «تحدثوا، اضحكوا، ان الحديث يخفف الجو ويزيل الحواجز المصطنعة»(32).

إن العجوز رحمة كثيرا ما تتحدث بمعان تفوق مستواها، إلا أن تجاوز المستوى لديها لا يقتصر على الحديث ولكنه يتمثل خاصة وبشكل واضح في تعاملها مع صناعة الأواني، إلى درجة أن الكاتب ينتقل بها من مجرد صانعة للأواني إلى فنانة حقيقية تنظر إلى ما تصنعه يداها نظرة أي رسام أو نحات أو فنان بصفة عامة إلى فنه. فهي عندما تتأمل لأول مرة صورة نفيسة تقول في نفسها: «آه لو أستطيع أن أصنع آلية واحدة توحي لناظرها بما توحي به هذه الفتاة! ... لكنت إذن أسعد امرأة»(33) وهي تخاطب مرة الراعي رابح الذي أنقذها من الموت بقولها: «أرأيت؟ لومت لبقيت هذه الأواني بلا اتمام»(34) ثم أنها كانت «تقص على رابح أخبار تلك السنة الأليمة التي عرفتها القرية منذ أكثر من ثلاثين سنة وعيناها تنتقلان بين بعض الأواني الفخارية القديمة التي هي عندها بمثابة سجل قيدت فيه حياة القرية وأيامها»(35) وحتى في هذيانها وهي مريضة فإن العجوز رحمة لا تنسى الحديث عن أوانيها إلى درجة أنها تتصور نفسها آنية.

ثم أن الكاتب يشير مباشرة إلى أنها «فنانة، وفنها اكسبتها اياه السنون الطويلة التي عاشتها»(36).

ويعبر الكاتب أحيانا في شخصية العجوز عن جوانب انسانية حميمية وجميلة في شخصية العجوز، فهي مثلا ليس لها ما تقدمه لروح زوجها سوى الأواني الفخارية التي تضعها على قبره في كل زيارة جديدة، والأمر نفسه يفعله الراعي رابح الفقير مع العجوز عند وفاتها فلا يجد ما يقدمه لها سوى لحن جميل يعزفه على الناي.

ثم أن العجوز رحمة التي تحلم دائما بصنع الأواني التي لم تصنعها تلتقي بعد هذا مع جميع الكادحين في القرية، هؤلاء، الذين يكدون ويعملون باستمرار، تلتقي مع الراعي الباحث باستمرار عن اللحن الذي لم يعزفه، ومع صانع القفاف الذي يبذل ما في وسعه لصنع أحسن قفة ومع الحاج قويدر المتفاني في صنع القهوة التي يعرف قيمتها والذي يعمل في مقهاه من الفجر حتى العاشرة ليلا.

إن هؤلاء جميعا يقابلون في القرية، أولئك الكسالى الذين يقضون وقتهم في المقهى بين لعب الورق، والحديث الفارغ.

إن الجوانب الفنية التي يمكن أن تثيرها رواية «ريح الجنوب» كاللغة والأسلوب والبناء الخ.. كثيرة ومتنوعة، إلا أننا سنحاول تناولها ببعض الايجاز.

أول ما يلاحظ على لغة هذه الرواية أنها لغة تميل في مجملها إلى العادي المألوف، هي لغة سردية حكائية عادية بسيطة في معظمها.

فالفعل هو الماضي الدال على الزمان المتتالي المتحرك باستمرار تلك الحركة المنتظمة الرتيبة، وزمن الرواية بعد هذا هو أيام من العطلة الصيفية في إحدى القرى الجزائرية الصحراوية.

ان اختراق رتابة هذا الزمان المنتظم للعودة إلى الماضي قليلا ما يحدث، كأن يرجع الكاتب - مثلا - إلى ماضي مالك زمان الثورة التحريرية، أو ماضي ابن القاضي أو العجوز رحمة. إلا أن ذلك بدوره يتم عادة عن طريق قطع الزمان الحاضر تماما، والانتقال إلى سرد الماضي لا عن طريق الفلاش باك - مثلا - أو الانتقالات السريعة.

لقد اختار الكاتب فصل الصيف الحار إطارا لروايته من حيث الزمان، وقصد أن يضع لهذا الزمان أيضا إطارا آخر استقاه من الطبيعة الصحراوية القاسية،

ولقد كانت هذه الطبيعة في القرية بما فيها من رياح جنوبية، وتراب، وغبار، ودوي عنيف، وجو قاتم، ولجة دكناء، وفحيح وصفير، وصراخ مما يبعث في النفوس جوا من الهلع، ولا يدع فيها ومضة من سرور، كانت هذه الطبيعة التي تجري فيها أحداث الرواية منسجمة تماما مع تلك النهاية المأساوية التي أرادها الكاتب لروايته(37) فتأثير هذا «(الجو القاتم) في النفوس لا يدع متسعا لومضة من سرور»(38) وهو يذكرنا مباشرة ببعض الآراء النقدية التي قيلت في رواية الغريب لالبير كامو، والتي ترى أن بطلها مرسو إنما توصل إلى قتل الجزائري بسبب تأثير الشمس المحرقة: «ونفث البحر كتلة من الهواء، سميكة وحارة، وبدا كما لو كانت السماء قد فتحت بكل طولها وعرضها لكي تمطر لهبا، وتوتر كياني كله، وتقلصت يدي على المسدس، واستجاب الزناد للضغط، ولمست أصبعي بطن المسدس المصقول، وارتفع صوت جاف وحاد في الوقت نفسه، وبدأت معه المأساة وأزحت العرق والشمس»(39) ومثلما أن الحيز الزماني في هذه الرواية محدد بأيام معدودة من فصل الصيف، فكذلك الحيز المكاني لا يتجاوز حدود هذه القرية، وحتى على مستوى القرية فأنه لا يتجاوز أمكنة بعينها هي بيت ابن القاضي، وبيت العجوز رحمة، وبيت رابح الراعي، ثم مقهى الحاج قويدر، والمقبرة، وأحيانا قليلة طرقات القرية أو الغابة القريبة.

والمكان لدى ابن هدوقة سواء في هذه الرواية أم في غيرها، هو عادة مكان التجمع مثل البيت، أو الحمام أو المقهى، لأن طريقة الكتابة لديه تقوم عادة على اجراء الحوارات والمناقشات بين اثنين أو أكثر. والرواية لديه سردية تحكي من الخارج ولا تسمح للفرد الواحد بالحديث «النفسي» إلا نادرا. ومن هذا النادر في هذه الرواية ما نجده في بدايتها تقريبا على لسان نفسية: «حتى النوم لا أستطيع أن أنام ليتني لو نمت (كدا) حتى تنقضي الشهور... كل شيء هنا يحرم الخروج،

حتى الشمس!... لكن أي فائدة في الخروج إلى الخراب! أظن أن القنابل الذرية التي يتحدثون عنها لا تستطيع أن تجعل مكانا أشد خرابا من هذه القرية... الصمت، الصمت، الصمت! أكاد أجن من هذا الصمت ...»(40).

كما أن لغته ترتقي أحيانا إلى مستوى الشاعرية الشفافة: «وكانت منذ أن فتحت النافذة وهي تسمع أنغام ناي حزينة، متقطعة آتية من بعيد، أفرغ فيها صاحبها كل ما يفيض به قلبه من حنان ووحدة وشوق، أنغاما صافية عذبة كأشعة القمر! ...»(41).

ومن بين الأمور الفنية الأخرى التي تلاحظ بشكل واضح في الكتابة الروائية - وخاصة في هذه الرواية - لدى ابن هدوقة اهتمامه بالوصف وتتبعه لدقائق الأشياء، فهو يقدم القرية التي تجري فيها الأحداث من جميع جوانبها في حياتها العادية البسيطة، فيصف الأشخاص وألبستهم وخاصة الألبسة النسائية كما يصف البيوت والأشياء والأواني في بعض الأحيان بدقة متناهية: «الحجرة ضيقة طولها ثلاثة أمتار وعرضها كذلك، بها كوة خارجية مطلة على جزء من البستان، ارتفاعها سبعون سنتم وعرضها خمسون سنتم، وفي هذه الساحة السرير القديم الذي تنام عليه نفيسة، وخزانة أشد قدما منه حيث حقيبتها وأثوابها وكتبها، وقرب الكوة منضدة ومقعد خشبي»(42).

يلاحظ هنا تحديد حجم الحجرة أولا، ومساحتها ثم الدخول في وصف جزئياتها بكل دقة ابتداء من الكوة، التي تطل على البستان وتحديد ارتفاعها وعرضها بالضبط، ثم الحديث عن سرير نفيسة ووصفه بالقدم، والخزانة التي هي أشد قدما منه الخ...

إن الكاتب مغرم بهذه التفاصيل وتتبعها بشكل واضح. وهذا مثال آخر يتحدث فيه عن تحضير القهوة من قبل الحاج قويدر: «أنواع القهوة التي يطلبها زبائنه

ثلاثة: «قهوة موز» بها قليل جدا من السكر، وقهوة «قد قد» يتساوى فيها مثقالا السكر والبن، وقهوة حلوة، يضع الحاج قويدر بالنوع الأول ملعقتي بن ونصف ملعقة سكر، وبالنوع الثاني ملعقتي بن ومثلهما سكر، وبالنوع الثالث ملعقة بن وثلاث ملاعق سكر. يأخذ البن والسكر من صندوق صغير مستطيل الشكل، ذي درجين، درج للبن وآخر للسكر، صندوق صيره القدم والبن والدخان أسفع اللون، بين الحاج قويدر وزبائنه طاولة سوداء كبيرة عليها الكؤوس والفناجين والأكواب القصديرية وسطلان كبيران ماؤهما أسود من غسل الفناجين»(43).

ويخرج الكاتب أحيانا عن أسلوب الرواية تماما ليقدم في تقريرية جامدة وجافة معلومات تاريخية أو غيرها، لا تخدم كثيرا الحدث الروائي بل ربما تعرقل تطوره. «وكان عام «البون» هذا من أعوام الحرب العالمية الثانية، وعملية تقسيط بيع المواد الغذائية على السكان امتدت من حوالي 1941 إلى سنة 1949. وكانت معظم سني الحرب سني جذب ومجاعة فشمل ذلك التقسيط القرى والمداشر وكان لكل أسرة ورقة بها عدد أفرادها يستظهر بها صاحبها في نهاية كل شهر لدى البائع المعتمد من طرف السلطة الحاكمة لشراء بعض المواد الغذائية كالدقيق والزيت والصابون والقهوة والسكر. وكان ما يوزع على السكان من غذاء فاسدا في معظمه، فانتشر الوباء، في القرى، فكان الموت يحصد الناس حصدا»(44). لا شك أننا نتفق جميعا على أن مثل هذا الأسلوب يصلح لكتابة مقالة، أو لكتابة التاريخ، ولكنه أبعد ما يكون من روح القصة أو الرواية.

إن رغبة الكاتب في تقديم كل شيء يلاحظه في القرية وفي بساطة متناهية، جعلته يركز على تتبع الأشياء الصغيرة ووصفها، كما جعلته هذه الرغبة يلجأ إلى تقديم كل ما أمكنه من معلومات عن الأمور التي يعرفها، كما اهتم أيضا بأحجام الأشياء، وبالمساحات، والمسافات والتواريخ فنجده يذكر السنة بالضبط أو الشهر، واليوم والساعة...

وهو بكل هذا وغيره يذكرنا بأساليب الواقعية الأوربية والروسية في رواية القرن التاسع عشر عند بلزاك وتولستوي ودستويفسكي وغيرهم.

الهوامش:

(1) - د. محمد مصايف، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، ص 180 - 181.

(2) - ريح الجنوب، ص 50.

(3) - المصدر نفسه، ص 61.

(4) - المصدر نفسه، ص 205.

(5) - المصدر نفسه، ص 216 - 217.

(6) -المصدر نفسه، ص 205.

(7) - المصدر نفسه، ص 13.

(8) - المصدر نفسه، ص 36.

(9) - المصدر نفسه، ص 37.

(10) - المصدر نفسه، ص 87-88.

(11) - المصدر نفسه، ص 88.

(12) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(13) - المصدر نفسه، ص 90.

(14) - المصدر نفسه، ص 201.

(15) - المصدر نفسه، ص 202.

(16) - المصدر نفسه، ص 252.

(17) - المصدر نفسه، ص 37.

(18) - المصدر نفسه، ص 244.

(19) - المصدر نفسه، ص 47.

(20) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(21) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(22) - المصدر نفسه، ص 59.

(23) - المصدر نفسه، ص 63.

(24) - المصدر نفسه، ص 171.

(25) - المصدر نفسه، ص 175.

(26) - المصدر نفسه، ص 178.

(27) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(28) - المصدر نفسه، ص 179.

(29) - المصدر نفسه، ص 74.

(30) - المصدر نفسه، ص 75.

(31) - انظر المصدر نفسه، ص 78 وما بعدها.

(32) - المصدر نفسه، ص 62.

(33) - المصدر نفسه، ص 37.

(34) - المصدر نفسه، ص 123.

(35) - المصدر نفسه، ص 129.

(36) - المصدر نفسه، ص 150.

(37) - انظر الفقرات المخصصة في الرواية للحديث عن ريح الجنوب، أو القبلي ص: 7، 85، 238، 266.

(38) - المصدر نفسه، ص 85.

(39) - البير كامو، الغريب، الدار القومية للطباعة والنشر، ترجمة محمد حسن حلمي، ص 55. ويمكن مراجعة ما قبل هذه الفقرة لزيادة للتأكد من فكرة تأثير الشمس.

(40) - ريح الجنوب، ص 8.

(41) - المصدر نفسه، ص 13.

(42) - المصدر نفسه، ص 8.

(43) - المصدر نفسه، ص 76.

(44) - المصدر نفسه، ص 25.

سيميائية الفضاء في رواية «ريح الجنوب» (1)

رشيد بن مالك
أستاذ محاضر جامعة تلمسان

حققت السيميائية قفزة نوعية في دراسة الأشكال السردية بخاصة والتجليات اللسانية وغير اللسانية بعامة. فبسطت نفوذها العلمي على حقول معرفية متنوعة، وأظهرت قدرة كبيرة في معاينتها وتقصيها بإقامة نماذج تحليلية مبنية أساسا على المنظور الافتراضي الاستنباطي.

ينطلق التحليل السيميائي من فرضية مفادها أن الفضاء نظام دال يمكن أن نحلّله بإحداث التعالق بين شكلي التعبير والمضمون، وننظر إليه على أنه مركب كالكلام؛ أي ما يدل عليه (المضمون) هو من غير طبيعة ما يدل به (التعبير)(2)، ويرتهن في وجوده الدلالي إلى الفعل الممارس فيه والقيم المحققة من استعماله(3).